بسم الله الرحمن الرحيم

٥٩ ـ سورة الحشر

قال الهيثمي : سميت به لدلالة إخراج اليهود عنده ، على لطف الله وعنايته برسوله وبالمؤمنين ، وقهره وغضبه على أعدائهم . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وكان ابن عباس يقول : سورة بني النضير .

روى البخاري[1] عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير .

وعنه قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير . وهم قوم من اليهود . وهي مدنية . وآيها أربع وعشرون ، بلا خلاف .

---

(١) أخرجه في : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ١ ـ باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[٢] (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ، مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ، وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » تقدم القول فى تأويل نظيره .

ثم أشار إلى بيان بعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته ، إثر وصفه بالعزة القاهرة ، والحكمة الباهرة على الإطلاق ، بقوله : « هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ » يعنى بنى النضير من اليهود « مِن دِيَٰرِهِمْ » أى مساكنهم التى جاوروا بها المسلمين حول المدينة ، لطفاً بهم « لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ » أى لأول الجمع لقتالهم . يعنى أخرجهم تعالى بقهره لأول ماحُشِر لغزوهم . والتوقيت به إشارة إلى شدة الأخذ الربانىّ لهم ، وقوة البطش والانتقام ، بقذف الرعب فى قلوبهم ، حتى اضطروا لأول الهجوم عليهم ، إلى الجلاء والفرار ، كما يأتى .

« مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ » أى لشدة بأسهم ومنعتهم ، فصار آية لكم ، لأنه من آثار سنته تعالى فى إذلال المفسدين وقهرهم . « وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ » أى من بأسه « فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ » أى عذابه ، وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء « مِنْ حَيْثُ

لَمْ يَحْتَسِبُواْ » أى لم يظنوا « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ » أى أنزله إنزالًا شديداً فيها ، لدلالة مادة (القذف) عليه ، كأنه مقذوف الحجارة .

قال القاشانىّ : أى نظر بنظر القهر إليهم فتأثروا به ، لاستحقاقهم لذلك ، ومخالفة الحبيب ومشاقته ومضادته ، ولوجود الشك فى قلوبهم ، وكونهم على غير بصيرة من أمرهم ، وبينة من ربهم ، إذ لو كانوا أهل يقين ما وقع الرعب فى قلوبهم ، ولعرفوا رسول الله ﷺ بنور اليقين ، وآمنوا به فلم يخالفوه .

« يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ » أى كيف حل بالمفسدين ما حل ونزل بهم ما نزل ، لتعلموا صدق الله فى وعده ووعيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ)

[٤] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

« وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ » أى الخروج من أوطانهم « لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا » أى بالقتل والسبى ، كما فعل بإخوانهم بنى قريظة . « وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ » أى الجلاء والعذاب « بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ » أى خالفوا « ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ » أى فيما نهاهم عنه من الفساد ، ونقض الميثاق . « وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى له فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)

« مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ » أى نخلة من نخيلهم إغاظة لهم « أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً

عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ » أى أمره ورضاه ، لأن ذلك ليس للبعث والإضرار، بل لتأييد قوة الحق ، وتصلُّب أهله ، وإرهاب المبطلين وإذلالهم، كما قال تعالى « وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ » أى لما فيه من إهانة العدوّ ، وإضعافه ونكايته .

تنبيه :

ذكر علماء الأخبار وأئمة السير ، أن سبب الأمر بجلاء بنى النضير هو نقضهم العهد . قال الإمام ابن القيّم : لما قدم النبىّ ﷺ المدينة ، صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم. ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمر به ربه ـ تبارك وتعالى ـ فصالح يهود المدينة ، وكتب بينهم كتاب أمن ، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة . فكانت بنو قينقاع أول من نقض ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ، وحاصرهم ﷺ ، ثم أمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها . ثم نقض العهد بنو النضير . وذلك أن رسول ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم، فتآمروا على قتله ﷺ، وأن يعلو رجل فيلقى صخرة عليه، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، وصعد ليلقى عليه صخرة، ونزل الوحى على الرسول صلوات الله عليه بما أراد القوم . فقام ورجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة. وأمر بالتهيؤ لحربهم . ثم سار بالناس ، حتى نزول بهم فحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل وتحريقها ، ثم قذف الله فى قلوبهم الرعب،

وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجْليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحَلْقة ، ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجَاف(٢) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يُسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير ابن كعب ، وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين : ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما همّ به من شأنى ؟ فجعل يامين بن عمير لرجل جعلًا على أن يقتل له عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يُذكر فيما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسول الله صلى عليه وسلم ، وما عمل به فيهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

« وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ » أى أعاد عليه من أموال بنى النضير « فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » أى فما أجريتم على تحصيله خيلًا ولا ركابًا ، ولا تعبتم فى القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . و (الإيجاف) من الوجيف ، وهو سرعة السير . و (الركاب) : ما يركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه . « وَلَٰكِنَّ

(١) العتبة التى بأعلى الباب .

« اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ » أى من أهل الفساد والإفساد ليقوم الناس بالقسط . « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

قال الزمخشرىّ : المعنى أن ماخوّل الله رسوله من أموال بنى النضير ، شىء لم يحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم ، وعلى مافى أيديهم ، كما كان يسلط رسله على أعدائهم . فالأمر فيه مفوض إليه ، يضعه حيث يشاء . يعنى أنه لايقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها ، وأخذت عنوة وقهراً . وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ، وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ » أى من أموال محاربيها ، وهو بيان للأول ، ولذا لم يعطف عليه ، « فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ » أى الفىء الذى حقه أن يكون لمن ذكر « دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ » أى يتداولونه وحدهم دون من هم أحق به . أو دولة جاهلية ، إذ كان من عوائدهم استئثار الرؤساء والأغنياء بالغنائم دون الفقراء « وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ » أى من قسمة غنيمة أو فىء « فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ » أى عن أخذه منها « فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » أى لمن خالفه إلى مانهى عنه .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل بالآية على أن (الفيء) ما أخذ من الكفار بلا قتال ، وإيجاف خيل وركاب ، ومنه ما جلوا عنه خوفاً . و (الغنيمة) ما أخذ منهم بقتال ، كما تقدم فى[1] قوله : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ...) الآية ، خلافاً لمن زعم أنهما بمعنى واحد ، أو فرق بينهما بغير ذلك . انتهى .

وكأن الذى زعم أنهما بمعنى واحد رأى أن مجمل هذه الآية بيَّنه آية الأنفال ، حتى زعم قتادة أن هذه منسوخة بتلك . قال ـ فيما رواه عنه ابن جرير[2] ـ : كان الفيء فى هؤلاء ثم نسخ ذلك فى سورة الأنفال فقال : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ) وجعل الخمس لمن كان له الفيء فى سورة الحشر . وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس . فأربعة أخماس لمن قاتل عليها ، ويقسم الخمس الثانى على خمسة أخماس : فخمس لله وللرسول ، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ فى حياته ، وخمس لليتامى ، وخمس للمساكين ، وخمس لابن السبيل .

والمسألة مبسوطة فى مطولات الفروع .

الثانى ـ قال الزمخشريّ : الأجود أن يكون قوله تعالى (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية ـ عامًّا فى كل ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه . وأمر الفيء داخل فى عمومه .

وفى (الإكليل) : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ماثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال إنه فى القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

---

(١) [٨ / الأنفال / ٤١].

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق فى الاستنباط .

ثم بين تعالى من أصناف من تقدم ، الأحق بالعناية والرعاية ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ)

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ » أى من مواطنهم ومألوفاتهم « يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ » أى من العلوم والفضائل الخلقية « وَرِضْوَٰنًا » أى منه ، وهو أعظم مايرغب فيه ، « وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ » أى ببذل النفوس لقوة اليقين « أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ » قال القاشانىّ : أى فى الإيمان اليقينىّ لتصديق أعمالهم دعواهم ، إذ علامة وجدان اليقين ظهور أثره على الجوارح ، بحيث لاتمكن حركاتها إلا على مقتضى شاهدهم من العلم .

ثم أشار إلى أن إيثار هؤلاء بالعطاء مما تطيب به نفوس إخوانهم الأنصار ، لحرصهم ، رضى الله عنهم ، على الإيثار دون الاستئثار ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ » أى دار الهجرة . أى توطنوها « وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من قبل مجىء المهاجرين إليهم . وعطف (الإيمان) قيل : بتقدير عامل . أى وأخلصوا

الإيمان . وقيل : استعمل التبوّؤ فى لازم معناه ، وهو اللزوم والتمكّن . والمعنى : لزموا الدار والإيمان . وجوّز أيضا تنزيل الإيمان منزلة المكان الذى يتمكّن فيه ، على أنه استعارة بالكناية ، وإثبات له التبوّؤ على طريق التخييل .

« يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » أى لوجود الجنسية فى الصفاء ، والموافقة فى الدين والإخاء .

قال الشهاب : المراد بمحبتهم المهاجرين هنا ، مواساتهم ، وعدم الاستثقال والتبرّم منهم ، إذا احتاجوا إليهم ، فالمحبة كناية عما ذكر ، كما قيل :

ياأخى ! واللّبيب ، إن خانَ دهرٌ ، يستبين العدوّ ممن يحبُّ

« وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ » أى فى أنفسهم « حَاجَةً » أى طلباً أو حسداً « مِمَّآ أُوتُواْ » أى مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره ، لسلامة قلوبهم ، وطهارتها عن دواعى الحرص . « وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » أى حاجة وفاقة .

قال القاشانىّ : لتجرّدهم وتوجّههم إلى جناب القدس ، وترفّعهم عن موادّ الرجس ، وكون الفضيلة لهم أمراً ذاتيًّا ، باقتضاء الفطرة ، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة ، والأعوان فى الطريقة . فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم ، لمكان الفتوّة ، وكمال المروّة ، ولقوة التوحيد ، والاحتراز عن حظ النفس .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية مدح الإيثار فى حظوظ النفس والدنيا . انتهى .

وقال ابن كثير : هذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى[1] (وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) ، وقوله[2] (وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ) فإن هؤلاء تصدّقوا ، وهم يحبون ما تصدّقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ، ولا ضرورة به . وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تَصَدُّق الصِّدِّيق

(١) [٧٦ / الإنسان / ٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

رضى الله عنه بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال رضى الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله! وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليَرْموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل ، أحوج ما يكون إلى الماء ، فردّه الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ، ولم يشرب به أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

«وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ » أى فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق. « فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» أى الفائزون بالسعادتين . وفى إضافة الشُّحّ إلى النفس إشارة لما قاله القاشانىّ من أن النفس مأوى كل شر ووصف ردىء ، وموطن كل رجس وخُلُق دنىء . والشح من غرائزها المجونة فى طينتها ، لملازمتها الجهة السفلية ، ومحبتها الحظوظ الجزئية ، فلا ينتفى منها إلا عند انتفائها . ولكن المعصوم من تلك الآفات والشرور ، من عصمه الله .

قال ابن جرير[1] : الشح فى كلام العرب البُخل، ومنع الفضل من المال . والعلماء يرون أن الشح فى هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق . ثم روى أن رجلًا أتى ابن مسعود فقال : ياأباعبد الرحمن ! إنى أخشى أن تكون أصابتنى هذه الآية (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وأنا رجل شحيح ، لا يكاد يخرج من يدى شىء ! قال : ليس ذاك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما . ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل ! انتهى .

والظاهر أنه عنى بالعلماء علماء الأثر ، لأنه لم يفسر إلا بالمأثور . ولعل ابن مسعود فسّر الآية بذلك ، لدلالة سياقها عليه ، إذ القصد تزهيد الأنصار فى أن تطمح أنفسهم لما جعل للمهاجرين دونهم . أو هو يرى الفرق بين الشح والبخل بما ذكره . وعلى كل ، فلا يتعين تأويل الآية بما ذكره ، بل هى مما تحتمله .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وعن ابن زيد فى الآية قال : من وُقِىَ شح نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً ، ولم يقربه ، ولم يدعه الشح أن يحبس من الحلال شيئاً ، فهو من المفلحين .

وروى ابن جرير(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : برئ من الشح من أدَّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة .

وروى الإمام أحمد(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من قبلكم : أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا .

وعن أبى هريرة(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

« وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) . والحديث رقم ٦٤٨٧ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه النسائىّ فى : ٢٥ ـ كتاب الجهاد ، ٨ ـ باب فضل من عمل فى سبيل الله على قدمه .

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » يعنى بالذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا حين قوى الإسلام من بعد الذين هاجروا مُخْرَجين من ديارهم . فالمراد مجيئهم إلى المدينة بعد مدة . والمجيء حسىّ . وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة. فالمجيء إما إلى الوجود ، أو إلى الإيمان . ونظير هذه الآية ، آية براءة[1] : (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ) .

قال الشهاب : والمراد بدعاء اللاحق للسابق ، والخلف للسلف ، أنهم متبعون لهم . أو هو تعليم لهم بأن يدعوا لمن قبلهم ، ويذكروهم بالخير .

تنبيه :

جعل الزمخشرىّ قوله (وَٱلَّذِينَ) عطفاً على (ٱلْمُهَٰجِرِينَ) كالموصول قبله فى قوله : (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ...) الخ ، فيكون قوله (يُحِبُّونَ) وقوله (يَقُولُونَ) حالين .

وجوز السمين : وجهاً ثانياً ، وهو كون الموصول فيهما مبتدأ ، وما بعده خبره .

وعندى أن هذا هو الوجه ، وماقبله تكلف ، وأن الموصولين مستأنفان لمدح إيمان الأنصار والتابعين لهم بتلك الأخلاق الفاضلة ، والخصال الكاملة . وما حمل الزمخشرىّ ومن تابعه على الاقتصار على الوجه الأول إلا لتشمل أصناف من يستحق الفىء من فقراء كلّ ، كأنه قيل : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ ...) الخ ، (وَ) للفقراء (ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا۟ ...) الخ وللفقراء الذين جاءوا مِن بَعدهم ... الخ ، مع أن سياق الآيات المذكورة ، ورعاية وقت نزولها ، والمهاجرون فى جهد ، والأنصار فى سعة ورغد ـ يقضى بأن المقصود منها للفىء ، هو فقراء المهاجرين خاصة ، وأن الذين تبوءوا الدار فى غنى عنه وعدم تشوف إليه ، لشدة محبتهم لإخوانهم ، بل رغبتهم فى إيثارهم . ثم بين تعالى حال من يجىء بعدهم بأنه يثنى على من سبقه ، ويدعو له ابتهاجاً بما

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

أتوا ، واغتباطاً بما عملوا ، لأنهم بين مهاجر عن أهله وأمواله ، محبة فى الله ورسوله ، وبين محب لمن هاجر ، مكرم له ، بل مؤثر إياه ، مما أشفّ عن قوة الإيمان ، والإخلاص فى تدعيم روابط الإيقان . هذا هو الظاهر من نظم الآيات الكريمة ، وذوق سوقها . وأما فقراء الصنفين الآخرين ، فإنهم يستحقون من الفىء قياساً على الصنف الأول ، لاشتراكهم فى الفقر . إلا أنه فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يشك أحد من الأنصار فى تلك الواقعة فقراً ، إلا سهلاً وأبا دجانة ـ كما تقدم ـ فأعطاهما صلى الله عليه وسلم . وأما فى غيرها من الوقائع التى كثرت فيها المغانم ، فقد كان حظهم منها ما هو معروف ومبين فى آيات أخر ، فإن التنزيل الكريم بيّن مقاسم الأموال لذويها فى عدة آيات .

روى ابن جرير[1] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ[2] (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ) حتى بلغ (عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ[3] (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ . . .) الآية ، ثم قال : هذه الآية لهؤلاء . ثم قرأ[4] (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ) حتى بلغ[5] (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ) ثم قال : استوعبت هذه الآية المسلمين عامة ، فليس أحد إلا له فيها حق . ثم قال لئن عشت ليأتين الراعى ، وهو يسيّر حُمُره ، نصيبَه ، لم يعرق فيها جبينه !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٩ / التوبة / ٦٠] . (٣) [٨ / الأنفال / ٤١] .
(٤) [٥٩ / الحشر / ٧] . (٥) [٥٩ / الحشر / ١٠] .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » يعنى بنى النضير المتقدم ذكرهم. وأخوّتهم معهم أخوّة دين واعتقاد ، أو أخوّة صداقة وموالاة لأنهم كانوا معهم سرًّا على المؤمنين « لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ » أى من دياركم « لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ » أى فى خذلانكم « أَحَدًا أَبَدًا » أى من الرسول صلوات الله عليه ، والمؤمنين « وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » أى لنعاونكم .

قال ابن جرير[1] : ذكر أن الذين نافقوا هم عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، ووُدَيعة ومالك ابنا نوفل ، وسُوَيد ، وداعس . بعثوا إلى بنى النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبُتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، وإن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا لذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا الحلقة ، كما تقدم.

« وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

« لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ » أى منهزمين ، « ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » أى بنوعٍ مّا من أنواع النصر . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣] (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)

« لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » أى

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

هم يرهبونكم أشد من رهبتهم من الله ، لاحتجابهم بالخلق عن الحق ، بسبب جهلهم بالله ، وعدم معرفتهم له ، إذ لو عرفوه لشعروا بعظمته وقدرته وعلمه ، ولم يستخفوا بمعاصيه ، ويستخفوا بأوامره . والضمير للمنافقين أو اليهود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)

« لَا يُقَاتِلُونَكُمْ » أى اليهود وإخوانهم « جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ » أى بالحصون، فلا يبرزون إلى البراز « أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ » أى من خلف حيطان، لفرط رهبتهم منكم. « بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » . قال الزمخشرىّ : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذلّ، عند محاربة الله ورسوله . انتهى .

« تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ » أى تظنهم مجتمعين لاتفاقهم فى الظاهر ، والحال أن قلوبهم متفرّقة ، لاختلاف مقاصدها ، وتجاذب دواعيها ، وتفرّقها عن الحق بالباطل . « ذَٰلِكَ » قال المهايمىّ : أى الاجتماع فى الظاهر ، مع افتراق البواطن ، « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ » أى أنه يوجب جبنهم المفضى إلى الهلاك الكلىّ . انتهى .

وفى هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم، والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ، ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى

مثل هؤلاء اليهود من بنى النضير ، فيما نزل بهم من العقوبة ، كمثل من نالهم جزاء بغيهم من قبلهم ، وهم كفار قريش فى وقعة بدر ، أو بنو قينقاع. قال ابن كثير: والثانى أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم قبل هذا . انتهى .

قال قتادة : إن بنى قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين بدر وأحُد . وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت . فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ، ولا يجاوروه بها ، فخرجوا إلى الشام ـ والتفصيل فى السير ـ .

وقال ابن جرير[1]: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن الله عز وجل مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ، مما هو مذيقهم من نكاله ، بالذين من قبلهم من مكذبى رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذين أهلكهم بسخطه. وأمر بنى قينقاع ، ووقعة بدر ، كانا قبل جلاء بنى النضير. وكل أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم ، ولم يخصص الله عز وجل منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض . وكل ذائق وبال أمره ، فمن قربت مدته منهم قبلهم ، فهم ممثلون بهم فيما عنوا به من المثل . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[١٧] (فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى مثل المنافقين فى إغراء بنى النضير على القتال ، ووعدهم النجدة أو الخروج معهم ، ومثل انخداع بنى النضير بوعد أولئك الكاذب ، كمثل الشيطان « إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ » أى إذ غرّ إنسانا ووعده على اتّباعه وكفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه « فَلَمَّا كَفَرَ » أى بالله ، واتبعه وأطاعه « قَالَ » أى مخافة أن يشركه فى عذابه ، مسلماً له وخاذلاً « إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ » أى فلا أعينك « إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى فى نصرتك فلم ينفعه التبرؤ ، كما لم ينفع الأول وعده الإعانة « فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى فى حق الله تعالى ، وحق العباد . أى وهكذا جزاء اليهود من بنى النضير والمنافقين ، الذين وعدوهم النصرة . وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به . إنهم فى النار مخلدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ » أى بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه .

قال المهايمىّ : يعنى أن مقتضى إيمانكم أن لا تأمنوا مكر الله ، فاتقوه أن يسلط عليكم الشيطان ليغويكم بالكفر ، ثم يتبرأ منكم .

« وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ » أى لما بعد الموت من الصالحات « وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى فيجازيكم بحسبها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ » قال ابن جرير[1] : أى لاتكونوا كالذين تركوا أداء حق الله الذى أوجبه عليهم ، فأنساهم حظوظ أنفسهم من الخيرات .

وقال القاشانىّ : (نَسُوا اللَّهَ) أى بالاحتجاب بالشهوات الجسمانية ، والاشتغال باللذات النفسانية (فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) حتى حسبوها البدن وتركيبه ومزاجه ، فذهلوا عن الجوهرة القدسية ، والفطرية النورية .

وقال ابن القيّم فى (دار السعادة) : تأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيما. وهو أن من نسى ربه ، أنساه ذاته ونفسه ، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه ، بل نسى ما به صلاحه وفلاحه، فى معاشه ومعاده ، فصار معطلاً مهملاً ، بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه ، لبقائها على هداها الذى أعطاها إياه خالقها . وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها ، فنسى ربه ، فأنساه نفسه وصفاتها ، وما تكمل به ، وتزكو به ، وتسعد به فى معاشها ومعادها . قال تعالى[2] (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) فغفل عن ذكر ربه ، فانفرط عليه أمره وقلبه ، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله، وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر، حيران لا يهتدى سبيلا . فالعلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ، ومصالح دنياه وآخرته. والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، وما تزكو به وتفلح به . فالعلم به سعادة العبد ، والجهل به أصل شقاوته . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٢ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٢٨] .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ » أى : الذين خرجوا عن الدين القيّم الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وخانوا وغدروا ، ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ، أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

« لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ » وهم الناسون الغادرون « وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ » وهم المؤمنون المتقون الموفون بعهدهم . « أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ » أى : بالنعيم المقيم .

تنبيهان

الأول ـ قال الزمخشرى : استدل أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر . انتهى .

وردّ الاستدلال بذلك أحد أئمة الشافعية ، وهو برهان الدين فى (تفضيل السلف على الخلف) بما مثاله :

احتج بهذه الآية بعض الشافعية فى مسألة قتل المسلم بالذمّى . وهذا فى غاية الضعف ، لأن أحداً لم يسوّ بينهما . وإيجاب القصاص ليس بتسوية ، لأنه ما من متباينين فى وجوهٍ ، إلا وقد استويا فى وجه أو وجوه . فلا يكون إيجاب القود استواء ، كما لا يكون إيجاب الدية والكفارة استواء . فهذا كلام مَنْ ضعف نظره فى مورد الانتزاع من شواهد الفرقان . انتهى .

الثانى ـ قال أبو السعود : لعل تقديم أصحاب النار فى الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبىء عنه عدم الاستواء ، من جهتهم ، لا من جهة مقابليهم . فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين ، زيادة ونقصاناً ، وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد ، لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص ، وعليه قوله تعالى[1] (هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ

(١) [١٣ / الرعد / ١٦] .

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) إلى غير ذلك من المواقع . وأما قوله[1] تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فلعل تقديم الفاضل فيه ، لأن صلته ملكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بملكاتها . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ » أى الجامع للمواعظ ، الموجب للنظر والتقوى بكل حال ، « عَلَىٰ جَبَلٍ » قال المهايمىّ أى بتفهيمه له ؛ وتكليفه بما فيه ، بعد إعطاء القوى المدركة والمحركة « لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا » أى متذللًا لعظمة الله « مُتَصَدِّعًا » أى متشققاً « مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » أى مع عظم مقداره ، وغاية صلابته ، وتناهى قساوته . قال القاشانىّ : أى قلوبهم أقسى من الحجر فى عدم التأثر والقبول ، إذ الكلام الإلهىّ بلغ من التأثير مالا إمكان للزيادة وراءه ، حتى لو فرض إنزاله على جبل لتأثر منه بالخشوع والانصداع « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى وتلك الأمور ، وإن كانت وهمية ، مفروضة ، فلابد من اعتبارها وضربها للناس الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا ، ولينهم فقست قلوبهم « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أى ليعلموا أنهم أولى بذلك الخشوع والتصدع .

قال الزمخشرىّ : الآية تمثيل كما مرّ فى[2] قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) وقد دل عليه قوله (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه ، عند تدبر القرآن ، وتدبر قوارعه وزواجره .

ثم أشار تعالى إلى أنه كيف يترك الخشوع لذات الله وأسمائه ، مع أنه :

---

(١) [٣٩ / الزمر / ٩] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٧٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ، هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ)

[٢٣] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

[٢٤] (هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« هُوَ ٱللَّـهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ » أى المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له . « عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ » أى ما غاب عن الحس وما شوهد « هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ » أى المنعم بالنعم العامة والخاصة . ومن كان مطلعاً على الأسرار يجب أن يخشع له ، ويخشى منه ، لا سيما من حيث كونه منعماً . إذ حق المنعم أن يخشع له، ويخشى أن تسلب نعمه «هُوَ ٱللَّـهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ » أى الغنىّ المطلق ، الذى يحتاج إليه كل شىء ، المدبر للكل فى ترتيب نظامٍ لا أكمل منه «ٱلْقُدُّوسُ» أى المنزه عما لا يليق بجلاله، تنزهاً بليغاً «ٱلسَّلَـٰمُ» أى الذى يسلم خلقه من ظلمه ، أو المبرأ عن النقائص كالعجز « ٱلْمُؤْمِنُ » أى لأهل اليقين بإنزال السكينة ، ومن فزع الآخرة «ٱلْمُهَيْمِنُ» أى الرقيب على كل شىء باطلاعه واستيلائه وحفظه « ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ الذى يَغلب ولا يُغلب « ٱلْجَبَّارُ » أى الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد عن قبضته ـ قاله الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ـ .

وقال الإمام ابن القيّم فى (الكافية الشافية) :

وكذلك (الجبارُ) من أوصافه والجبر فى أوصافه قِسْمَانِ

جبرُ الضعيف . وكل قلب قد غدا ذا كسرة ، فالجبرُ منه دانِي
والثانِ جبر القهر بالعزّ الذى لا ينبغى لسواه من إنسانِ
وله مسمًّى ثالثٌ وهو العلـ وّ فليس يدنو منه من إنسانِ
من قولهم (جبّارةٌ) للنخلة الـ مليا التى فاتَتْ بكل بَنَانِ

«ٱلْمُتَكَبِّرُ» أى الذى يرى الكل حقيرًا بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . « سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى من الأوثان والشفعاء . « هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَالِقُ » أى المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته . «ٱلْبَارِئُ» أى الموجد لها بعد عدم . «ٱلْمُصَوِّرُ» أى الكائنات كما شاء . « لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الدالة على محاسن المعانى ، وأحاسن المدائح . « يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى فى تدبيره خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم وسعادتهم .

تنبيهات :

الأول ـ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال الرب الكريم ، وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد الذى لابد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذاتٍ لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عُدَّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكايدهم للإسلام ، فإنهم عكسوا المعلوم عقلًا وسمعاً فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى ، والجحد المحض ، وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله[1] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ) . وقال سبحانه وتعالى[2] (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ). فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٠] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

وجب الإيمان به على الجميع ، والإنكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذمٍّ لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله ، فإن الله أجلّ من أن يسمىّ باسمٍ لم يُتحقق أنه تسمّى به .

ثم قال : وعادة بعض المحدّثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخارىّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوّله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه . ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده من أحصاها بالجنة ، كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء ، فأما إذا كانت أسماؤها سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر . وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروىّ بالضرورة والنص .

ثم أطال رحمه الله فى ذلك وأطاب . فليرجع إليه النَّهِمُ بالتحقيقات .

الثانى ـ قال الغزالىّ فى (المقصد الأسنى) ـ وهو من أنفس ما ألف فى معانى الأسماء الحسنى ـ : هل الصفات والأسامى المطلقة على الله تعالى تقف على التوقيف ، أو تجوز بطريق العقل ؟ والذى مال إليه القاضى أبو بكر الباقلانىّ أن ذلك جائز ، إلا ما منع منه الشرع ، أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى . فأما مالا مانع فيه فإنه جائز . والذى ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ ، رحمة الله عليه ، أن ذلك موقوف على التوقيف ، فلا يجوز أن يطلق فى حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه ، إلا إذا أذن فيه .

والمختار عندنا أن نفصل ونقول : كل ما يرجع إلى الاسم ، فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف ، فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب .

ثم جوّد رحمه الله البيان بما لا غاية بعده .

الثالث ـ قال السيد ابن المرتضى فى (إيثار الحق) : قد تكلم على معانيها جماعة من أهل العلم والتفسير ، وأكثرها واضح ، والعصمة فيها عدم التشبيه ، واعتقاد أن المراد بها أكمل معانيها ، الكمال الذى لايحيط بحقيقته إلا الله تعالى .

ثم قال : ولابد من الإشارة هنا إلى أمر جلىّ ، وهو أصل عظيم ، وذلك تفسير الحسنى جملة : فاعلم أنها جمع (الأحسن) لا جمع الحسن . وتحت هذا سر نفيس : وذلك أن (الحسن) من صفات الألفاظ ، ومن صفات المعانى . فكل لفظ له معنيان حسن وأحسن ، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على (حُسْنَىٰ)، ولا يفسّر بالحسن منهما إلا الأحسن بهذا الوجه . ثم بيّن مثال ذلك فانظره .